لما يحتاج في ذلك من فضل الرقة واللطف ايضاً اذا كان يريد ان يذكر شيئاً قد مضى وبعد عهده

وهذا كاف لما سألت عنه كفاك الله الهم ودفع عنك كل مكروه واسعدك في الحياة والممات بجوده وكرمه انه هو الجواد

ليلة الدماء

رواية معربة بتصرف بقلم حضرة الخوري مارون غصن استاذ العربية في كليتنا

كان لخمّار حانة منفردة في ضواحي بعض مدن ايطالية. فاتفق ذات يوم ان لم يغشها احد فجلس الخمّار وابناؤه يخضخضون الزجاجات في أقصى الحانة. فأقبل بقّار عند الأصيل ودخل فلم ير احداً فصاح: أما في الدار من ديّار؟. فهتف الخمّار من داخل وقد عرف القادم: اهلاً بيعقوب. واقبل يُرحّب به ويؤهل كعادة الخمّارين إلى أن قال: لا رَيْبَ ان قد احتدم عليك الحرّ في هذا النهار الوَمِد. فاجاب البقّار: لو كان الوَمَدُ وحده لهان الخطب ولكنّهُ حرٌّ وغبار فقد ابتلعتُ منه ما لو فُرش في ارض هذه الحانة لكان لها بساطاً. فقال الخمّار مازحاً: آه لو انّ لنا شذور ذهب عِداد ما ابتلعتَ من الذرّات! ما قولك؟.. الستَ على رأيي؟... فما تشاء ان تشرب على ذكر ذلك؟ أخمراً ام عرَقاً؟

فاجاب المسافر عليّ بكأس عرق ينظّف حُلقومي

واذ كان الخمّار يسكب جلس يعقوب على كرسي واسند عصاه الى فخذه واخرج من جيبه منديلاً وجعل يمسح العرق عن وجهه. ثمّ كشف عن ساعديه وهو يتأفّف قائلاً: بعداً للغبار وسحقاً بل أفّاً للمدن وطُرُقها فلقَرْيتي برحتها وصخورها أحبُّ إليّ من المدن بفضولها وغبارها.. ثمّ أبرقت أسرّتهُ فقال: «لكنّ السوق كانت رائجة. بارك الله في المدن ففيها السعي والعمل». ثم ضرب جيبه وهتف. اربعة آلاف فرنك في جيب يعقوب!.. اربع ورقات كل واحدة منها بالف.. فلقد رافقني التوفيق في ما بعت من البقر فربحتُ في كل ثور ٢٠٠ فرنك. فلو كانت

سائر الأيام كهذا اليوم لاستغنيت عن السعي والعمل وعشتُ في غبطة وهناء.

فهتف الحمّار منبهتاً: إذن... معك؟..

— اربع ورقات كل واحدة منها بالف فرنك.

فمدّ الحمّار صوته قائلاً: بألـ.... ف؟

— نعم بألف فرنك

— او لست تخشى عدواً ومعك ما معك؟

فاجاب يعقوب ضاحكاً: أمثلي يخشى؟... كأنك لا ترى هذه العصا... خذ رُزّها... فضلاً عن انّ في هذا الصدر ايماناً. هاك... انظر

ثم كشف عن صدره فبانت مَسْرَبَةٌ كأنها غابة وجذب خيطا قد سوّده العرق ... فبدت ايقونتان علاهما الصدأ فلثمهما باحترام وقال: ترى هاتين الايقونتين؟.. احداهما تمثل القديس مبارك شفيع المسافرين والثانية القديس انطون محامي المساكين. فحصي بهما درعاً في وجه كل معاند اذا امتطيتُ غارب الليل وجبت القفار في رفقة الذئاب والضباع اذ اني واثق أن لا يعنّي أذى ولا ينالني مكروه

فقهقه الحمّار قائلاً: أيصدّق انّ مثلك ذكياً يكسب ٢٠٠ فرنك في بيع زوج بقر يعتقد مثل هذه الخرعبلات!

فشقّ هذا الكلام على يعقوب فاجاب ممتعضاً: ذلك هو معتقدي ولك معتقدك

فهزّ الحمّار رأسهُ وقال: امّا انا فلا دين لي ولا معتقد...

فاجاب يعقوب: انت معتقِدٌ ان لا معتقَد لك فانت اذن معتقد شيئاً... ثم مسد شاربيهِ وتعبّب الشراب وهتف: حبذا شراب يزيل الهم ويبعث الهمم. فلقد نهكني التعب والحرّ وكاد يخنقني الغبار

امّا الحمّار وقد كان يشتاق العَود الى ما همّهُ فقال: أو تحسب يا صاح انّ هاتين النحاستين اللتين تدعوهما ايقونتين...

فقاطعهُ يعقوب مغضباً وقال: اذا بدا لك يا صاح أن تمزح فلا بأس ولكن حذارِ حذارِ أن تسخر من الدين فلست أُطيق على ذلك صبرًا

فغضّ الحمّار من صوتهِ وكظم غيظهُ وغيّر الحديث وقال: لك ما تشاء. فهل لك الآن ان تشرب كأساً ثانية؟

— لا بأس فانَّ طلبك لا يُردّ. ثم عاد الى ذكر ما قاساه من حرّ النهار وغباره..

وبعد ربع ساعة كانت الشمس قد توارت في الافق وارخى الليلُ سدولهُ ولم يكن يُسمع في تلك الفيفاء الّا وطء اقدام يعقوب راجعاً الى قريتهِ ولا أنيس لهُ في ذلك القفر الموحش الّا ظلُّهُ. ولم يكن الّا قليل حتى هبَّت الريح فعبثت بثوب يعقوب الضافي فصار يلوّح كانهُ طائر مدَّ جناحيهِ في الفضاء.

امّا الحمار فخطر لهُ بعد ذهاب يعقوب خاطرٌ جهنّمي فصفّر لابنيهِ فاسرعا وهما ينشفان ايديهما باطراف مئزريهما فقال لهما: أرأيتما ذلك الافق الذي ههنا" فأشرأبّت اعناق الولدين الى والدهما فاردف: "إنَّ مع هذا الفرّ ٤٠٠٠ فرنك!.. وهو اعزل لا سلاح لهُ وانّما يعتقد انهُ معزّز ببعض الايقونات. فدونكما معاجيل الطريق واسبقاه الى رأس الغابة السوداء.. وترصّداه مليّا حتى إذا بلغ اليكما فتكتما بهِ... وبعد ساعة تكون الاربعة الآلاف فرنك لنا.. أفهمتما؟"

فتمدم الكبير وقال: ليس ذلك بالمطلب الصعب. وأيّد الصغير زعم اخيهِ قائلاً: بل هو اسهل من السهل. ثم ذهبا يُعدّان ما يحتاجان إليهِ فعمد الصغير الى قضيب من حديد امّا الكبير فاستلَّ مدية لها حافة وشفرة مُرهفة وقال لابيهِ: أتشاء ان تخطف روحهُ اختطافاً؟. فتوقّف الاب لحظة ثم هتف: على مَن يسعى أن يتمّ السعي. وبعد أن نفض الشابّان الطريق مشيا حثيثاً فما لبثا أن توارَيا عن العيان

وكان يعقوب منذ جنَّ الليل وانتشرت فرقهُ الجنحة الظلام يسير تعباً متثاقلاً حتى بلغ الغابة السوداء فزاد استيحاشه بين اشجارها المتكاثفة واضطرّ ان يقصّر الخطى اتّقاء الاخاديد وحذراً من الاغصان التي تعترض المارّين ثم اخذ يصعد في العقبة المؤدية الى الطريق

وبينما هو كذلك اخذت خناقهُ يدٌ كأنها من حديد. وكفٌّ شثنةٌ أطبقت فمهُ فلم يكد يحتاط لنفسهِ حتى نزلت برأسهِ ضربة هائلة فعضمت صوابهُ وجدّلتهُ على الارض صريعاً

فبقي المسكين زمناً غائباً عن الهدى ولمّا عاد اليهِ الرشد أحسّ بآلام مبرّحة وكان الدم يتفجر من جبينهِ وقد صبغ وجههُ. ونظر فاذا ثيابهُ قد تمزّقت وجيوبهُ قُلبت فعاد في حالةٍ يُرثى لها. فحاول الوقوف مرارًا فخانتهُ القوّة لكنهُ

تجلّد وجرّ نفسه الى بركة ماء قريبة وما اتاها حتى كاد يُغمى عليه وجعل يغسل الدّم ويُزيل الاوحال. فانعشهُ الماء قليلًا حتى استطاع ان ينهض فعرف قبعته وعصاه من بقايا ثيابه المبعثرة هنا وهناك. لكنه رأى من نفسه العجز عن أن يتمّم سيرهُ فيقطع ما تبقّى له من الطريق ففكّر ان يرجع إلى الخمّار فيسعهُ هناك ان يتعافى قليلًا وفي الغد يستأجر عجلة تحملهُ الى قريته . . .

فراح المسكين يسحب جسمهُ المثخن بالجراح وادار ظهرهُ للغابة السوداء وقفل راجعًا على اعقابه

وفيما هو سائر كان يردّد في ذهنه ما جرى له فكان يشكر الله على نجاته ويحمده كل الحمد اذ وجد في طيّ قبعته الاربع الورقات التي كان ربحها. ولمّا جاز الغابة بدت السماء من فوقه وقد تألّقت على صفحتها زُهر النجوم. فجثا على قدميه وصلى قليلًا ثم اخذ الايقونتين وقد كان وجدهما قرب الحفرة التي أُلقي فيها وقبلهما بعواطف الايمان والشكر

. . .

مضى على الخمّار ساعة وهو مبلبل البال قلق الخاطر وعيناه الحمراوان تكادان تخرجان من وَقبهما. فعاد ابناه في اثناء ذلك فارغين ودخلا يبرران ويدمدمان. فلمّا علم ابوهما انهما قد رجعا خائبين تميّز غيظًا وصاح بهما :

يا لكما من غبيين احمقين اكيف لم تعودا بالمطلوب ؟

ثم اخذ يروح ويجيء كمن تخبّطهُ الشيطان

وكانت الحانة مضاءة بسراج والنور ينساب منها خلال الزجاجات وشبكات النوافذ فيشتبك في الخارج ببعض الخيالات فيتشخّصُ للناظر مشهد مشؤوم

هذا والابنان مطرقان خجلًا وهما يعتذران بما لم يُصِبْ من ابيهما غيرَ اذنٍ صمّاء.

وبعد حين قال الخمّار لولديه : وهل اعدمتماه الحيوة في القليل

فأجابا جواب من قد فاز بالمنى وقالا : ورأسك لقد كدنا نطحنهُ طحنًا

فقال الاب : او لم تجدا معهُ شيئًا ؟

فاجاب الكبير : كلّا وقد قلبنا جيوبهِ وبحثنا في جميع ملابسه حتى في نعليه فلم

نعثر على قصاصة ورقة . فكشر الاب عن انيابه وانتهرهما قائلاً : بُعداً لكما من فدمين ابلهين

فاحتدم الكبير وقال : لو كنتَ مكاننا ماذا كنت صنعت ؟

فاجاب والشرر يتطاير من عينيه : لكنتُ بعد ما جدَّلتهُ حملتهُ الى ههنا وجلست على ضوء السراج اقلِّبهُ ظهراً لبطن وابحث حتَّى في اعماق جوفه

وفيما هو يقول ذلك اذا بيد مخشوكة تقرع الباب ولم يكن القارع للنتاب الَّا يعقوب مصبوغاً بدمه . . . ولم يستطع الدخول لأن الباب كان مُزلَجاً . . فهبَّ الخمَّار واسرع ليفتح وهو لا يكاد يصدِّق ما يرى . فدخل يعقوب فتسلَّط على الحانة سكوت الموت . وتولَّى الجميع الهلع وأخذتهم الرعدة كأنهم رأوا ميتاً قام من قبره وجاء ليحاسبهم فاصفرَّت وجوههم واصطكَّت أرجلهم وتحلَّب العرق من جباههم وارتدَّ الابنان الى الوراء يطلبان بايديهما المرتعشة حائطاً يعتمدان عليه . . امَّا الاب فاستمرَّ وحده واقفاً في وسط الحانة وعيناه شاخصتان الى يعقوب دهشةً وخوفاً

فقال يعقوب متلجلجاً : او يدهشك يا صاح ان تراني على هذه الحال ؟ . . فأرتج على الخمَّار ولم يقوَ على الكلام . فكرَّر يعقوب قوله ثم اشتدَّ عليه الهزال فلم يعد يتمالك الوقوف فاستلقى على الكرسي وقال للخمَّار : عليَّ بكأس . . .

فأسرع الخمَّار وهو لا يكاد يقوى ان يبسط يده ليسكب له الشراب . . فلمَّا بوَّد يعقوب غليلهُ قال : تصوَّر يا صاح اني وصلت الى الغابة السوداء . فكنت اجوزها وانا غير حاسب للدهر حساباً واذا بوغدٍ عاجل راسي بضربة زعزعتني فهويتُ الى الارض

فابتدر الخمَّار الكلام وقال : او لم تعرف الضارب ؟

فاجاب يعقوب : كلَّا . . .

فتنفس الجميع الصعداء وقشعت عنهم كلمة يعقوب غيمة الكرب . فدنوا اليه فشرع يقصُّ عليهم ما جرى له لكنَّ الخمَّار عاجلهُ قائلاً : كأني بالاشقياء سلبوك جميع ما معك ! . .

فاجاب يعقوب بنغمة الظافر المنتصر : كلَّا ! . . لم يسلبوني شيئاً . . كأنهم لم يطلبوا غير حياتي والبرهان ان الاربع الورقات لا تزال معي لم تمسها يد لص .

والايقونتان ايضاً !.. فكأن الشقي خشي اعينها الاربع وقد نظرت اليهِ شزرًا

فقال الخمّار بصوت مرتعش : واين كنت خبأت الاوراق ؟...

فقال يعقوب : اين ؟.. في بطانة قبعتي ..

وحينئذٍ خيَّم السكوت ثانيةً فوق الحانة .. وتبادل الأشقياء نظرات مشؤومة كأنهم يتسآلون . أنجهز عليهِ للحال أم نتربَّص قليلًا ..

اما يعقوب وقد كان مشغولًا بجراحهِ فلم يلحظ شيئاً فطلب اليهم سريرًا ..

فهتف الخمّار وقد ابرق وجههُ مسرورًا وقال : على الرحب والسعة ايها الضيف الكريم واذا لم يكن لنا سرير فرشنا لك الصدور وها اني اعدُّ لك سريري ... سريري انا

فقال يعقوب : ليس السرير لسوى بضع ساعات فلا داعي لانزعاجك

فاجاب الخمّار بصوت مضطرب كأنهُ لم يعد يملك نفسهُ فرحاً بالغنيمة القريبة وقال : لا انزعاج منك يا يعقوب ولا كرب اصلًا فيا مرحباً بك !!

...

كان يعقوب بعد ساعة مستلقياً على السرير في غرفة الطبقة العليا فوق الحانة وقد آلمتهُ الكلوم وبرَّحت بهِ الآلام . فكانت تلك الليلة ليلة الاوجاع فاستغرق هزيعاً من الليل ثم انتبه وقد تشرَّبتهُ الحمّى فأهوى برأسهِ الى الوسادة وجعل يعالج النوم من جديد علَّهُ يجد فيهِ مخفَّفاً لاوجاعهِ فلم يفلح . فعزم اخيرًا ان ينهض في طلب شيءٍ من الخلّ او غيرهِ ليفرك بهِ بدنهُ . وراح يبحث في الظلام حافياً ونزل الدرج فلقي الباب المؤدي الى الحانة موصدًا . وبينما هو كذلك إذ سمع همساً فاعار اذنيهِ ليلتقط ما يقال فاذا الخمّار يقول : يا لكما من غرَّين لا تجربة لهما . كيف لم تبحثا في القبعة وإنها لاوَّل مخبأ يُخبأ فيهِ ؟ . إليكما عني فما انتما الَّا عارٌ على ابيكما . عمَّا قليل تنظران كيف اتدبَّر الأمر . ألا امهلاني ريثما يكون قد استغرق في النوم فتريا ثمَّ هل يصلد لي زند أم يطيش لي سهم . ويرى يعقوب أنَّ ايقونتَيهِ لم تدفعا عنهُ الويلات

ثم اخذ يتبصر في الامر وينظر في الوسائل فقال : الأولى ان اميتهُ خنقاً فلا نضطرّ بعد ذلك ان نتزع ثيابنا . وإني قبل ان تبرد جثتهُ اقذف بها من النافذة الى

الحفرة التي تسرعان الان إلى حفرها تحت اكداس الدمن وليكن عمقها ثُماء ذراع

فلمّا سمع يعقوب ما سمع كاد يذهب عقلهُ فصعد للحال من حيث نزل ورجع الى غرفتهِ واخذ يتوسّل بذريعة تفيلهُ النجاة ولكن اين للهرب والحديقة من ناحية والطريق من ناحيــة . فاذا رمى بنفسهِ سقط قريباً من الحانة فانتبه لهُ اعداؤهُ او نبح عليهِ الكلاب فضلاً عن ان السقطة تفتح كلومهُ . هذا اذا فُرض انهُ لا يموت بسقوطهِ

وفيما هو يتفكّر ويتبصر خطر لهُ خاطر هائل فقال : إنهم لمازمون على قتلي . وما تلك بالمحاولة الأولى . و إني ارى ان الدين وشرائع الارض والسماء تُبيح الدفاع عن النفس وتحلّل قتل من اراد القتل

وكان الخطر ردّ لهُ كل قوى شبابهِ فنهض للحال يطلب سلاحاً يدرأ بهِ عن نفسهِ . . ؟ . ولكن اين السلاح ؟ فليس في الغرفة مــدية . . ولا عصاً . . . و إذ كان يبحث بصر بقنينة عظيمة مملوءة ماء معدنيًّا كانت منسيَّة في زاوية من زوايا الخزانة وتلك لعمر الحقّ تكون في يد من لم يعرف الخوف نعم السلاح . فحسر عن يديهِ فبدا ساعدان مفتولان ووقف وراء الباب ينتظر في ذلك الليــل البهيم وهو فاتح عينيهِ ناشر اذنيهِ ليعرف ما يعدُّون لقتلهِ

وكان الاشقياء قد شرعوا في حفر الحفرة تحت اكداس الدمن ويعقوب يسمع باذنيهِ صوت تراب مدفنهِ وقد رفعتهُ مجارف الاشقياء والقتهُ الى جانب القبر

فقال احد الابنين : أفما يكفي هذا العمق ؟ . فانحنى الاب ونظر ثم اجاب : عمقا ايضاً قدر ربع ذراع

فاستأنف الثلاثة الحفر صامتين . . . وبعد بضع دقائق توقّف الاب وقال لابنهِ الصغير : اين وضعت مدقّة الحديد ؟

— وراء الباب . ولماذا ؟

قال لقد عدلت عن رأيي وبدا لي ان اسلبهُ الحيوة بضربة تسحق رأسهُ . فذلك خير من خنقهِ وأسرع لحتفهِ

ثمَّ دخل الحانة فعــاد بالمدقّة وهمَّ بالذهاب فخطر لهُ ان يستثبت عمق الحفرة ثانيةً وبعد ان تفحّصها قال : حسن . لكن الامر يتطلّب منتهى الانتباه فانتبها . واني

اقذف تكما به سخناً فتلقيانه للحال في الحفرة لئلا يبقى فيه رمق ثم تحثوا عليه التراب ولكن حذار حذار من سراج او شبه نور فحسبنا مارٌ ليكشف الامر . فهيا . . .

فاجاب الابنان : ها نحن ذان

وقال الاب : الان جاءت نوبتي . . .

امّا يعقوب فكان عند ذاك متسمرًا بين الباب والحائط فسمع تأمّة الحمّار يخلع نعليه ليختفي ثمّ اخذ في الصعود بمنتهى الهدوء والسكوت . .

فكان كلٌ من البقّار والحمّار تحت الظلام يتجسس حركات صاحبه وكلاهما يحبس نفسهُ خيفةً ان يدري الآخر به . .

فلمّا انتهى الحمّار الى قمّة الدرج توقّف لحظةً شأن من يتردّد قبل الاقدام على خطب فظيع . . ثمّ تقدّم بكل احتياط ففتح الباب وقارَ اليه مشياً على اطراف قدميه منتحياً ناحية السرير . . .

لكنهُ لم يخطُ خطوتين حتى ابتدره يعقوب بضربة هائلة على أُمّ رأسه واتبعها بثانية وثالثة كما يعيد الحطّاب الضرب على جذع شجرة أبت ان تسقط . فثنى الحمّار ركبتيه وبسط يديه المتشنجتين بسطاً مخيفاً وخرّ صريعاً . فتمدم احد الشقيين من أسفل قائلاً : لقد تمّ العمل

فما كان من يعقوب إلّا ان نزع ثياب الحمّار وفيها مفاتيح الدار وتعجّل لبسها وألبس الجثّة ثوبهُ الموحّل الممزّق وعصب موضع الجرح ورمى بالاب الى ولديه

فسمعها يجرّانه الى الحفرة فزجّا به فيها واندفعا يحثوان عليه التراب فصدق به المثل " من حفر حفرة لاخيه وقع فيها "

وقد كانت تلك الخلسة في عين يعقوب ثمينة فانتهزها وتسلّح بمدقّة الحديد إذ ان الزجاجة قد تحطّمت على رأس الشقي وأسرع الى الدرج فنزله وهو لا يلوي على شيء . ولم يكن لينسى قبعتهُ وفيها الاوراق المالية ناحية براحة . فجاز الحانة خاويةً خاليةً وهياجهُ عظيم حتى لم يعد يشعر بألم جراحه . ووصل الى الباب البرّاني ففتحهُ ثم اقفلهُ وراءهُ واخذ الطريق واطلق ساقيه للريح

. . .

لم يمضِ على الحادثة ساعة حتى وفد الى الحانة خمسة جنود ومن ورائهم عجلة

فيها يعقوب. وكان ابنا الحمّار اذ ذاك جالسين في احدى زوايا الحانة يتحدثان بغضب وقلق وهما يجهلان سبب اختفاء ابيهما فكان يُخيَّل اليهما انهُ يطوف البرّية فرحاً وجيوبهُ محشوة اوراقاً ماليّة. وانّهما لكذلك اذ فُتح باب الدار بغتةً وابصرا الجند قادمين فتولّتهما الدهشة وارتعدت فرائصهما لاسيما وقد نظرا من خلال حراب الجنود وجه يعقوب المدمّى. وقد كانا يحسبانهِ انهُ صار من سكّان القبور فوقفا مدهوشين شاخصين

فدنا زعيم الجند وقال للاخ الكبير: اين ابوك؟ فاجاب هذا متلعثماً: لا اعلم!

فانتهرهُ الزعيم قائلاً: إن كنت تجهل مكانهُ فتعال لأُريكهُ. وانّجه نحو الحديقة وتبعهُ الجمع والابنان ايضاً وقد كان القرويون اسرعوا جميعهم وراء الجنود ليعلموا ما الخبر. فامر الزعيم الولدين ان يستأنفا الحفر ففعلا مرغومين

وهناك... على مشهدٍ من الجنود نبش الابنان جثّة ابيهما!... فاخذ الجميع ذعرٌ شديد. وكانت جثة الحمّار مشوّهة لأن ولديهِ كانا وطئا وجههُ بارجلهما وخدّشا جسمهُ بمجارفهما

ولمّا ان بسطوا الجثة على رمال الحديقة كانت الشمس قد بزغت من وراء الافق وألقت اشعتها فوق تلك النواحي. فرأى الجميع عقاب الله وشاهدوا عدلهُ الرهيب!!

فرسم يعقوب على صدرهِ اشارة الصليب والتفت الى الجثة فقال: ليغفر لك الله

ثم ارتدَّ الى الابنين وقال: ايها الاخوان إني ناصحٌ لكما ان يحمل كلٌّ منكما على صدره ايقونة حتى تكون لكما درعاً تتقون بها سهام البوائق وحرزاً يقيكما من شرّ النوازل والغوائل!... وما مرَّ على هذا الحادث اسبوع حتى نال الولدان جزاء عملهما فشُنقا

زراعة التبغ التركيّ في لبنان

للشيخ يوسف اسكندي الجميّل الاجزائي القانوني ورئيس اعمال المختبر الكيماوي سابقاً (تابع)

نَقْش البزر (التنقيس)

نقف البزر (التنقيس) يتمُّ عادةً بعد بَذْره في الارض بعشرة أيام الى عشرين يوماً